

حفرة أم الرصاص - ميفعه

اعداد : تيسير عطيات

مقدمة

تقع مدينة أم الرصاص الأثرية على بعد ٣٠ كلم جنوب شرق مادبا - ويمكن الوصول إليها عن طريق مادبا، نتل، الزعفران، وادي الرميل وقلعة الرميل، مزير عليا - حليفا - ام الرصاص - ويلاحظ وجود طريق قديمة مرصوفة عند مزير عليا - كما يستطيع الزائر الوصول عن طريق ذيبان - الخط الصحراوي أو مرورا بزيياء - خان الزبيب.

تقسم آثار المدينة الى قسمين، القسم الأول منها داخل معسكر تحيط به الأسوار وتبلغ أبعاده ١٥٠×٢٠م. وفيه اربعة كنائس ومعصرة زيتون.

أما القسم الممتد الى الشمال من المعسكر فيحتوي على ثمانية كنائس أهمها الدير الذي يقع الى الشمال، قرب المنارة المرتفعة (لوحة ا، ب) والى جانبه برج مربع يرتفع في دورين تم ترميمه في السبعينات.

ولما كانت أم الرصاص تفتقر الى مياه الينابيع فقد أنشأ داخل المعسكر وخارجه عدة برك وآبار لجمع مياه الأمطار. فقد وجدت بئر داخل كنيسة سرجيوس التي سوف نأتي على ذكرها كما وقد حفرت عدة برك في الصخر الى الشمال من المنارة التي أشرنا إليها.

استكشاف المدينة:

قام بزيارة مدينة أم الرصاص عدد من

الرحالة في القرن الغابر، وكان أولهم الرحالة الألماني سيتزن Seetzen عام ١٨٠٧ والذي كان في طريق عودته من غور الأردن بعد رحلته الفاشلة الى البتراء وقد قال في وصفها:

«أنا على يقين أن المدينة محفوظة كاملة بطرقها وبيوتها ومعابدها. وأجمل ما فيها جدرانها المبنية بالحجارة السوداء المربعة مع استخدام مادة الرصاص كمونة بين الحجارة»^(١).

ثم تبعه بيكنغهام ورفاقه عام ١٨١٦ وايربي ومانجلز عام ١٨١٨ اللذان لم يعبرا المكان الأهمية الكافية.

أما بالمر Palmer الذي زارها عام ١٨٧٠ بعد أن سمع عن اكتشاف مسله ميشع في ذيبان فقد وصفها كما يلي:
«انها مدينة ذات شأن في العصر العربي المسيحي»^(٢).

ثم زار المدينة الرحالة ترسترام عام ١٨٧٢ والذي قال عنها:
«انها مدينة مربعة، واسعة، قوية البناء من أكمل المواقع التي رأيناها»^(٣).

وكان من أهم العلماء الذين زاروها كليرمونت - غانو Clermont-Ganneau قنصل فرنسا في القدس، عام ١٨٧٠ والذي نشر نقشا نبطيا على حجر البازلت وجد في الموقع وهذا نصه:^(٤)

«هذه مسلة عبد ملكو»

1871, p. 498-500.

^٢ The Land of Moab, London, 1874, p.140-143.

^٤ RAO, II, p. 185-188; CIS, II, 195.

^١ Reisen durch Syrien, Palestina, Phönicien, die Transjordan-Länder..., II, Berlin, 1854, p. 352 f.

^٢ The Desert of the Exodus, II, Cambridge.

بن عبيشو قائد الحامية

نصبها له يعمر

اخوه قائد الحامية

في السنة الأولى للملك ملك الأنباط».

أبعادها ٢٣×١٢م - وقد رصفت بالفسيفساء سنة ٥٨٧م، في عهد الأسقف سيرجيوس. الهيكل يرتفع درجتين عن صحن الكنيسة وحنيته مزينة بحملين متقابلين عند جذع شجرة رمان، في داخل الحنية مصطبة لجلوس الكهنة، وبين الحملين كتابة يونانية داخل اطار دائري هذا نصها: (لوحة ٢، ب)

«في العهد الزاهر لسيدنا الكلي القداسة والمبارك الاسقف سرجيوس فرشت هذه الكنيسة المقدسة بالفسيفساء بهمة الكاهن بروكبيوس في شهر غوربايوس من عام ٤٨٢ للولاية العربية» (ويعادل ٥٨٧ ميلادي) في صحن الكنيسة يلاحظ الزائر آثار حرب الايقونات التي دمرت جميع الصور الحية ما عدا الحملين المشار اليهما - وقد تم في السابق تغطية هذه الصور بفسيفساء بيضاء، كما ويلاحظ ترميم بكسر الفخار الأموي في منطقة الهيكل لحفظ حبات الفسيفساء من الخراب.

وتمثل الأشكال الحية المتبرعين للكنيسة مع طيور وحيوانات وأسماك وقد جعل الفنان مشاهد الحياة اليومية من الصيد وقطاف العنب في الاطار الخارجي بينما وضع صور المتبرعين وأشغالهم في وسط الصحن، وهم أبناء يوحنا وعواديا يحمل مبخرة في يده اليمنى ثم يوحنا بن برفيريوس وبريخا وزنجون وهما ممسكان بحبال حول ثور سوف يتم ذبحه بسكين وبلطة. والى اليمين تظهر صور أبناء صوفيا وتوجد صورة لرجل آخر اسمه يوحنا مع كتاب في يده، ثم تأتي صورة راعي مع أغنامه ويتبعه شاوول يحرث الأرض بزوج من الثيران. ثم يأتي محسن آخر مجهول الاسم يحمل طفلا على كتفه.

وفي عام ١٨٩٧ زارت المدينة بعثة برونوف وفون دوماشفسكي التي نشرت ثمان صور للمدينة مع مخطط للمعسكر والكنائس^(٥). وتبعها في عام ١٩٣٣ العالم نلسون غلوك^(٦) الذي وجد فيها شقفا فخارية نبطية بيزنطية، وعربية اسلامية.

وفي عام ١٩٤٨ زار المدينة الأب باغاتي الفرنسيكاني الذي حاول اثبات مخطط عام للمدينة مع التركيز على المواقع التي تظهر فيها كنائس. وفي العام الماضي زار الموقع كل من عطوفة مدير الآثار العامة الدكتور عدنان الحديدي برفقة الأب ميشيل بيشرللو من معهد الآثار الفرنسيكاني مع السيد تيسير عطيات مفتش آثار مادبا حيث تنوي دائرة الآثار العامة اجراء تنقيبات موسمية في الموقع تمهيدا لترميم المآثر العمرانية واستقطاب المزيد من الزوار بسبب الأهمية الأثرية للموقع والتي لا تقل عن مدينة جرش والبتراء.

الحفريات:

بدأ الموسم الأول في نهاية شهر تموز واستمر حتى أواخر شهر أيلول ١٩٨٦ بإشراف مفتش آثار مادبا وبالتعاون مع معهد الفرنسيكان للآثار بإدارة الأب ميشيل بشيرللو ومساعدة متطوعين ايطاليين.

١ - كنيسة الأسقف سيرجيوس: (لوحة ٢، أ).

تقع في الجهة الشمالية من المدينة وتبلغ

Exploration in Eastern Palestine, I, AASOR, . . ٦
XIV, 1934, p. 39 f.

Die Provincia Arabia, II, Strassbourg, 1905, . . ٥
p. 63-72.

الكتابات :

عند الدرج المؤدي الى المذبح كتابة يونانية هذا نصها :- (لوحة ٥)

« في عهد الأسقف الكلي الطوبى سرجيوس انتهى العمل في رصف هذه الفسيفساء في كنيسة القديس العظيم ، الشماس الأول وأول الشهداء اسطفانوس - بعناية يوحنا بن اسحق المقرب من الله القارىء والشماس وصاحب قلعة ميفعه الوكيل ، ويجهد كل شعب قلعة ميفعه المحب للمسيح في شهر تشرين في الاشارة الثانية لسنة ٦٨٠ للولاية العربية ، لذكرى وراحة نفس فيدونوريوس بن عياص ، محب المسيح » .

ويناسب هذا التاريخ عام ٧٨٦ ميلادي أي في أوائل العصر العباسي .

يثبت هذا النص المعلومات التالية :-

١ - ان اسم ام الرصاص القديم هو قلعة ميفع (ميفعه في المراجع العربية). وقد ذكر هذه المدينة ازبيوس القيصري في فهرسه الجغرافي (الانوماستيكون) الذي كتبه في النصف الأول من القرن الرابع. وكذلك ذكره مرجع آخر هو فهرس الاشراف *Notia Dignitatum* للإمبراطورية البيزنطية في القرن الرابع ، على أنه مركز لفرسان الجيش الروماني .

وقد ذكرها الجغرافي العربي البكري في «معجم ما استعجم» بقوله: «ميفعه قرية من أرض البلقاء في بلاد الشام... زيد بن عمرو بن نفيل قتل من قبل سكان ميفعه وهو في طريقه الى النبي ﷺ ليعلن اسلامه» .

٢ - تشير الكتابة كذلك الى أن المدينة كانت

وتظهر صورة يوحنا وبطرس على ظهر الجياد ومعهما ضارب القوس وجندي مشاة ، يتبعهما ثوران وحيوانان مفترسان . توجد صور لثلاثة محسنين آخرين بين الأشجار أمام حاجز الهيكل واسم أحدهم رباب . وهناك صورتان غير مألوفتان تمثلان طائر الفنيكس ورجل يحمل فرشته على كتفه وربما تشير هذه الصورة الأخيرة الى المقعد الذي شفاه السيد المسيح .

توجد كتابتان قرب درج الهيكل بثلاثة اسطر الأولى من المزمور ٢٨٧ :-

« الرب يحب أبواب صهيون أكثر من خيام يعقوب » والأخرى :-

«أيها الرب ارحم جميع الذين تعبوا في صنع هذه الفسيفساء وأسمائهم معروفة لديك . عملت في عهد شاول وقسيس وعبدالله وعبيد ، المؤمنين » .

حُفرت الى يمين المدخل الرئيسي بئر لجمع مياه الأمطار ، ثم تاج عمود نبطي استعمل مقعدا لجرة ماء . من المفاجآت غير المتوقعة ظهور صورة أحد الفصول الأربعة كانت تحت المنبر - وهي مع الحملين المشار اليهما الدليل الوحيد على كفاءة الفنانين .

كنيسة القديس اسطفانوس : (شكل ١ ، لوحة ٦-٣) .

ترتفع هذه الكنيسة مترا واحدا عن كنيسة سرجيوس . وهي من أهم وأكبر الكنائس المكتشفة في الاردن اذ تبلغ أبعادها ١١,٥×٢١م . تتألف من صحن رئيسي ينتهي بمحراب نصف دائري ومن رواقين . وعلى يمين وشمال المحراب غرفتان مربعتان . وللكنيسة مدخلان من الجنوب وآخر من الغرب .

الفسيفساء

لا شك أن اللوحات الفسيفسائية التي كشف عنها التنقيب في كنيسة الشهيد اسطفانوس هي من أجمل وأهم ما ظهر في الأردن حتى اليوم، لولا أنها وقعت ضحية حرب الايقونات في بعض أجزاءها. وتصور ثمانية مدن في فلسطين في الرواق الأيسر وهي المدينة المقدسة (القدس الشريف)، نابلس، سبسطية، قيصرية، ديوبوليس (اللد)، والفثروبوليس (بيت جبرين)، عسقلان، غزة (لوحة ٤، أ - د) وتقع مدن من الضفة الشرقية للأردن في الرواق الأيمن وهي: قلعة ميفع (ميفعه)، وقد صور الفنان كنيسة أو ديرا وفي ساحته منارة مرتفعة هي في أغلب الظن المنارة التي لا تزال قائمة في الجهة الشمالية من الموقع (لوحة ١، أ، ب) - ثم فيلادلفيا (عمان)، مادبا (لوحة ١، ج، د) ، اسبونتيا (حسبان)، بلمونتيا (بعل ماعين)، اريوبوليس (الربيه)، كرك موبا (الكرك)، دبلتين وهي مدينة غير معروفة قرب ذيبان وربما كانت مدينة ذيبان نفسها وبالقرب منها تظهر صورة المتبرعين للكنيسة ثم لمبون وهي في أغلب الظن اللب، بين مادبا وذيبان (لوحة ٦، ب).

وفي صحن الكنيسة تظهر عشرة مدن ومناظر في دلتا النيل. وأهم هذه المدن الاسكندرية (لوحة ٧، أ).

الخلاصة:

رغم أن الحملة الأولى في أم الرصاص كانت محدودة الا انها اسفرت عن نتائج غير متوقعة أهمها:-

١ - اثبات اسم أم الرصاص القديم وهو قصر ميفعه الذي ظهر في سفر الخروج في

تتمتع بالحكم الذاتي بقيادة يوحنا بن اسحق، أحد أبناء المدينة، وان فن الفسيفساء ظل مزدهرا حتى القرن الثامن الميلادي.

وتوجد كتابة أخرى عند الهيكل، وحولها زخارف هندسية تثبت هذا التاريخ: لوحة (٦، أ - ٣، ب)

«بنعمة المسيح رصفت فسيفساء هذا الهيكل المقدس في عهد ابينا الكلي التقوى الأسقف أيوب في شهر آذار، في الإشارة التاسعة - سنة ٦٥٠» (٧٥٦ ميلادي).

«أيها الرب اذكر عبدك استوراكيوس الفنان الحسباني ابن زادة واريميوس رفيقه. اذكر يا رب عبيدك الياس (بن) صموئيل القاريء وقسطنطين وجرمانوس وعبدالله مع ماريا».

وتكشف هذه الكتابة:

١ - عن أيوب أحد أساقفة مادبا الذي لم يكن معروفا في السابق.
٢ - عن الفنان الذي قام برصف الفسيفساء وهو من حسبان.

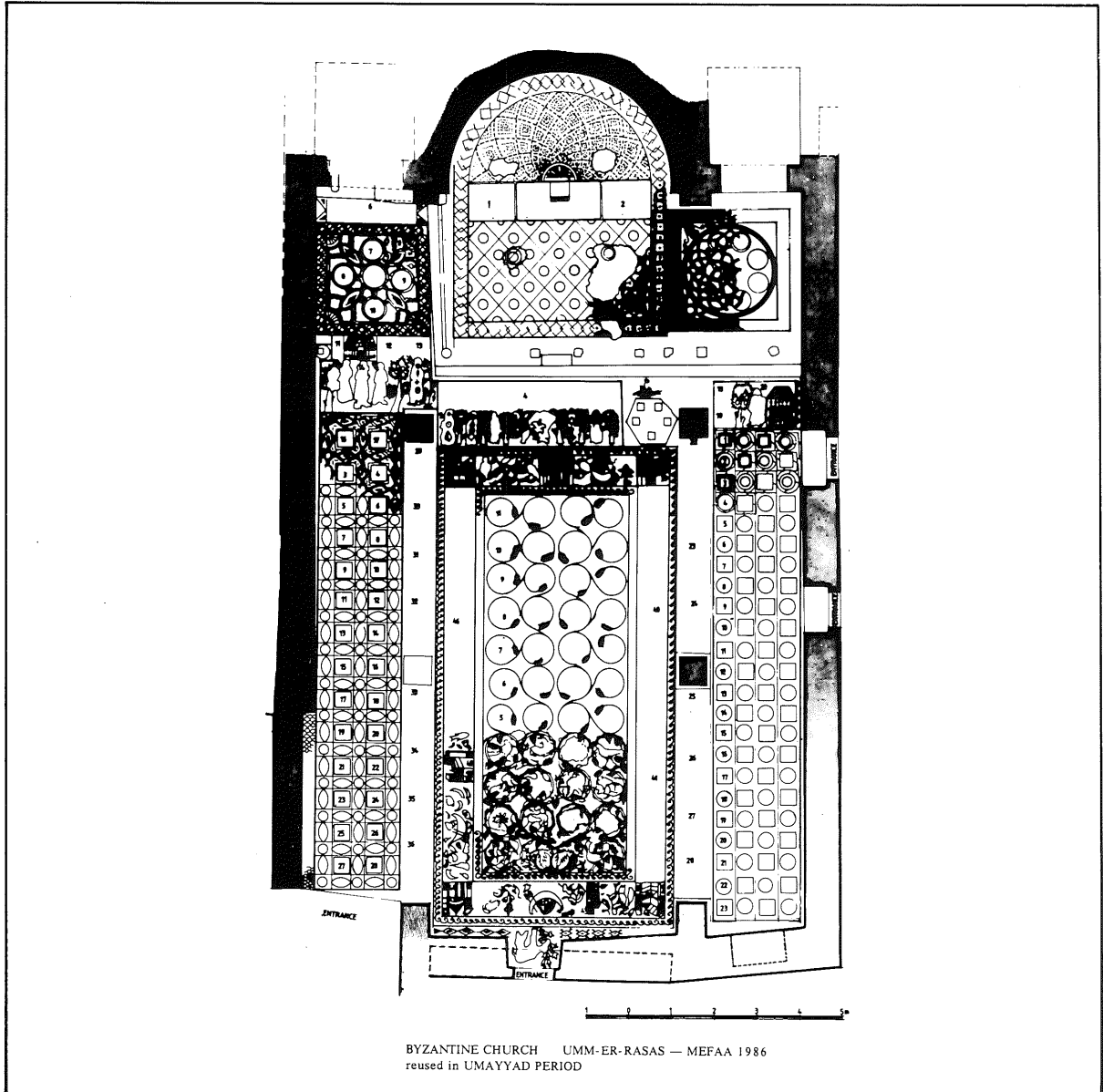
كما وتوجد كتابة أخرى عند المذبح تشير الى أحد رهبان صياغة: (لوحة ٦ ، ب)
«اذكر يا رب عبدك قيوم، راهب وكاهن فسغه (صياغه) وأخيرا توجد كتابة في الرواق الجنوبي للكنيسة هذا نصها: (لوحة ٦ ، ب).

«اذكر يا رب عبيدك فناني الفسيفساء الذين أنت وحدك تعرف أسماءهم» وأغلب الظن انها تشير الى ترميم للفسيفساء قام بها فنانون لا يريدون ذكر اسماءهم لأسباب غير معروفة.

٣ - من ناحية أخرى تفتح اكتشافات أم الرصاص ملف قضية حرب الايقونات في الكنائس البيزنطية فاذا كانت فسيفساء أم الرصاص قد تعرضت للتحطيم بعد عام ٧٨٦م. فهذا يعني وجود حركات مناوئة للايقونات في الاردن موازية للحركات التي اشغلت الامبراطورية البيزنطية في نفس العصر.

تيسير عطيات
مكتب آثار مادبا

التوراه وفي فهرس ازيببوس القيصري .
٢ - ان تأريخ كنيسة الشهيد اسطفانوس في أوائل العصر العباسي (٧٨٦م) يفتح فصلا جديدا في فن الفسيفساء في الاردن ، هذا الفن الذي ظل مزدهرا في العصر الأموي كما تشير الى ذلك قبة الصخرة المشرفة وقصر هشام وقصر الحلابات وغيرها. وتؤكد الاكتشافات الجديدة أن الفنانين الذين اشرفوا على هذه الزخارف الجميلة هم من سكان البلاد.



شكل ١ - مخطط كنيسة الشهيد اسطفانوس.

